

حافظ وشوقي

(١)

في أقل من ثلاثة أشهر فقدت مصر لسانها الناطقين ،
وفقد الشرق العربي شاعريه العظيمين حافظاً وشوقي . وكأنا
أراد القضاء أن يمهّل أمير الشعراء شهرين وبعض شهر ليرثي
حافظاً وينصفه بعد موته كما مدحه حافظ وأثنى عليه ، وأعلن
إمارته للشعر في حياته .

فلما قضى شوقي من ذلك حق الوفاء والانصاف والعدل
ألحقه الله بصاحبه في حيث لا تنافس ولا تفاخر . وفي حيث
لا غل ولا حقد ولا موجدة . وقد كان شوقي يرجو - كما
قال - أن يرثيه حافظ ، ولو قد تأخر حافظ عن شوقي لقال
إنه كان يرجو أن يكون السابق وإن يرثيه شوقي . وأمر الله
نافذ وكلمة الله هي العليا ، فقد أراد أن يموت حافظ وأن
يتبعه شوقي بعد شهرين وبعض شهر ، وأن يفقد الأدب العربي
الحديث عليه ولسانيه وشاعريه ، وأن ترزأ مصر في ابنها
العزیزین دون أن تجد في أحدهما خلفاً من فقد صاحبه .
ولست أكتب هذا الفصل لأصف حزن مصر أو حزن

الشرق العربي على الشعاعين ، ولا لأصور هذه اللوعة التي
ملأت عليهما قلوب الأصدقاء والأحبة . فقد عرف الناس
ذلك معرفته وقد كثر الكلام فيه ، وما أظن أن الناس
سيفرغون منه قبل زمن طويل . إنما أريد في هذا الفصل أن
أكون مؤرخاً للشعر المصرى الحديث ، وأن أكون منصفاً
في هذا التاريخ ماوسعى الانصاف ومدت لى أسبابه وهيئت
لى وسائله ، ولعل أول الانصاف أن أعترف بأنى قد عرفت
الشاعرين وكان بينى وبينهما ما يكون بين الناس من قرب
وبعد ، ومن مودة وإعراض . وأنى لم أكد أشيع كلا من
الرجلين الى حيث أراد الله له أن يكون ، حتى أخذت نفسى
بأن أنسى ما كان بين شخصيهما وبينى من هذه الخصومات
الباطلة التي تعرض للناس فى الحياة ، والا أستبقى منهما الا
الخير الذى يدعو الى الحب ويشير فى النفس عاطفة الحزن
والآلم ويطلق اللسان والقلب بهذا الدعاء الخالص الصادق
البرى الذى نسميه الاستغفار .

فرحم الله هذين الراحلين الكريمين اكلمة أطلقها خالصة
قد ملأها البر والحب والوفاء . ولكن حافظاً وشوقى ليسا
شخصين فحسب ، وإنما هما شاعران كانا فى حياتهما ملكا

خالصاً للنقد ، وهما بعد موتها ملك خالص للتاريخ . وقد قال
النقد فيهما حين ما استطاع أن يقول ، فعرفاً وأنكراً ورضياً
وسخطاً . ولعل النقد لم يستطع أن يبرأ من تأثير رضاها
وسخطها . ولعل النقد أن يكون قد حرص على أن يغيظهما
فأسرف في الطعن ، أو على أن يرضيهما فغلا في الثناء . ولعلهما
أن يكونا قد رضا عن ثناء المادح فتلفظا له حتى أغرياه بالغلو
في المدح ، أو سخطاً على نقد الناقد فتكررا له حتى أغرياه
بالإفراط في اللوم ، والاغراق في التجريح . وكذلك يعجز
الأحياء عن أن ينصف بعضهم بعضاً لأن شهوات الرضى
والسخط وعواطف الحب والبغض وأهواء التعصب والتحزب
تفسد عليهم أعمالهم فتدفعهم راضين أو كارهين الى الغلو
حيناً والى التقصير حيناً آخر . وإذا لم يستطع الأحياء أن
يظفروا من شركائهم فى الحياة بالانصاف والعدل ، فخلق
بالموتى أن يظفروا بهذا العدل وذلك الانصاف ، لأن الموت
ينبغى أن يجب ما قبله ، وأن يمحو ما فى الصدور من غل وما
فى النفوس من موجدة ، وما يتعلق به بعض الناس على بعض
من أسباب الخصومة والمنافسة والكيد .

وأنا أريد أن أعترف أيضاً بأنى كنت أؤثر حافظاً على

شوقى فى حياتهما ، وكنت أختص شاعر النيل من المودة
والحب بما لم أختص به أمير الشعراء . لأن روح حافظ
وافق روحى ، ولأن كثيراً من أخلاق حافظ وافق أخلاقى
ولكنى على ذلك أريد (وأستعين الله على ما أريد) أريد أن
أنسى الآن حى حافظ وإثارى إياه بالمودة الصادقة والحب
الخالص ، وأن أجعل الرجلين سواء أمام النقد الأدبى الذى
أريد أن أعرض له فى هذا الفصل . وأنا أعلم أن من العسير
جداً أن يخلص المؤرخ ومؤرخ الأدب بنوع خاص من
عواطفه وشهواته ، ومن ميوله وأهوائه ، ومن ذوقه فى الأدب
والفن . فهو خلىق أن يخضع لهذا كله قليلاً أو كثيراً حين
يدرس الشعراء والكتاب ، أو يوازن بينهم أو يحكم عليهم .
أعلم أن هذا عسير ولكنى أعلم أنى سأجد فيه ما استطعت .
وأعلم بعد ذلك أنى إنما ذكرت عواطفى التى كانت تعطفنى
على حافظ بالحب والمودة ، وتصرفنى عن شوقى بعض الشئ
لتم أنت ماقد أعجز عنه أنا من الانصاف ، ولتمحو أنت ماقد
أتورط فيه أنا من الغلو والاغراق .

وأنا أشد الناس رثاء للكتاب وللشعراء والأدباء وأصحاب
الفن الجميل عامة ، فحظوظهم سيئة فى حياتهم من غير شك ،

وقلنا ينصفهم التاريخ بعد الموت ، هم يثيرون في نفوس الأحياء
ضروباً من الحقد وألواناً من الضغينة . هذا ينفس عليهم
لأنه لم يوفق إلى حظهم من الاجادة ، ولم يظفر بمثل ما ظفروا
به من إعجاب الناس ، وكان خليقاً أو كان يرى نفسه خليقاً
بالاجادة والاعجاب . وهذا يتنكر لهم لأن الحسد قد ركب
في طبعه ، ولأن غريزته قد فطرت على الشر وحب الأذى .
وهذا يتنقصهم لأنه لم يفهمهم أو لم يذقهم ، ولأن قنهم لم
يقع من قلبه موقع الرضى ، ولم ينزل من نفسه منزلة الموافقة ،
وهم يحتملون ذلك ويتعرضون له ويعلمون أنفسهم بأن المرء
لن يكفر بحقه من الانصاف والعدل ما عاش . ولكن
التاريخ قائم ينصف المظلوم ويقضى في أمره بالعدل والقسط ،
يعلمون أنفسهم بهذا ويتعززون به عما يلقون في حياتهم من
الأذى ، وما يحتملون فيها من الألم . وهذا خير لأنه يعصمهم
من اليأس ، ويحميهم من القنوط ويذود عنهم عوادي الضعف
والفشل . ولكن التاريخ ليس أشد إنصافاً ولا أدنى إلى العدل
من آراء الأحياء المعاصرين ، لأن الناس دائماً طوع شهواتهم
وعبيد أهوائهم . وهم متأثرون بهذه المؤثرات المختلفة التي
تنضطرهم إلى ظلم الأحياء ولا تعفيهم من ظلم الموتى . ولقد

وجدت شيئاً غير قليل من الألم اللاذع والحزن المفضى حين
قرأت فصلاً لأناتول فرانس يصور هذا اللون القائم من
يأس الأديب .

كتب أناتول فرانس هذا الفصل حين استقبل الشاعر
الفرنسي المعروف لكونت دي ليل في المجتمع اللغوي الفرنسي .
وكان هذا الشاعر قد دخل هذا المجمع معيلاً لا منتخباً ، كما هي
العادة ، أو قل إن كنت تريد التحقيق دخله بوصية من
فكتور هوجو ، أوصى له بكرسيه في المجمع قبل أن يموت ،
ولم يستطع المجمع أن ينكر وصية الشاعر العظيم فأنفذها ،
وقبل لكونت دي ليل بين أعضائه مع أنه كان قد رفضه قبل
ذلك بإجماع لم يشذ عنه إلا فيكتور هوجو نفسه ، وأن موعد
استقبال العضو الجديد في المجمع ، فكتب أناتول فرانس قبل
هذا الاستقبال بأسبوع فصلاً لاذعاً في جريدة الطان - تجده
في الجزء الأول من الحياة الأدبية - سخر فيه من الشاعر
سخرية مرة مضحكة ، وتنبأ بما سيقوله في خطبته . وأنت قد
تعرف أسلوب أناتول فرانس ومذهبه في السخرية والاستهزاء .
فلما كان يوم الاستقبال نهض الكسندر دوماس الصغير - كما
يقولون - لاستقباله ، فلم يكن أقل من أناتول فرانس سخرية

ولا استهزاء . كان لكونت دى ليل متشائماً ينكر الحياة ويؤثر
نفناء ، فاسمع الخطيب المجمع اللغوى وهو يستقبله ويرحب به ،
كيف يسأله : إذا كنت تكره الحياة فما بقاءك فيها ؟ ١ وإذا
كنت تؤثر الفناء فما أحجامك عنه وامتناعك عليه ؟ ٢
وتكلم المستقبل وتكلم العضو الجديد عن فيكتور هوجو
فما العضو الجديد فزعم أن الأجيال المقبلة ستعجب بآثار
فيكتور هوجو كلها ، وأما المستقبل فزعم أن الأجيال ستقضى
فى هذه الآثار قضاءً قاسياً فتقبل منها وترفض . فلها انصرف
أنا تولى فرانس من هذه الجلسة كتب هذا الفصل المحزن الذى
أشرت إليه آنفاً والذى أنكر فيه أن تكون الأجيال المقبلة أحق
بالانصاف وأقدر عليه من الأجيال المعاصرة . وانهى الى
أن فيكتور هوجو كان صاحب فن فى الألفاظ قليل الحظ
من التفكير فلسفته سخف ، وأنبأنا بأن الذين أعجبوا بفكتور
هوجو حياً قد أخذت تخيب آمالهم فيه بعد أن مات . وتنبا
بأن الأجيال المقبلة لن تستبقى من شعر فيكتور هوجو الا
شيئاً قليلاً .

كذلك كان يتحدث أنا تولى فرانس وأمثاله عن فيكتور
هوجو ولما يمض على موته أكثر من عامين ، أرأيت حظ الأدباء ؟

يتعرضون لسخط الأحياء ويصلون نار النقص ما عاشوا. فأذا ماتوا
فأما أن يتعرضوا للنسيان وأما أن يتعرضوا للظلم والجور. وقليل
منهم من ينصفه التاريخ فيعرف له مكانته وحقه من الإعجاب .
ما أجدر الذين ينتقدون الأدباء ويؤرخونهم بعد الموت
أن يكونوا رحماء لولا أن العلم لا يعرف الرحمة ، وهو يخشى
على نفسه الفساد إن طمع فيها أو اطمأن إليها .
ليس للاديب أمل في الانصاف فليتخير بين حياة : خيرها
شر وحلوها مر ، وبين الاعراض عن الأدب والانصراف
عنه الى غيره من فنون الحياة .

(٢)

ظهر الشعر العربي حين عرفه التاريخ في نجد ، لا يكاد
يتجاوز به إلى الحجاز أو إلى العراق الا قليلا ، حين يرتحل الشعراء
غربا إلى الأسواق والحج أو شرقا إلى أمراء الحيرة ، وربما
زار شعراء نجد أمراء غسان في أطراف الشام مما يلي جزيرة
العرب ، فلما ظهر الاسلام وانبسط سلطانه على الأرض ظلت
دوحة الشعر في نجد ، وامتد ظلها إلى العراق شرقاً ، وإلى
الحجاز غرباً . ولكنها لم تمتد هذا الظل إلى الشام ولا إلى
مصر ، ولم تتجاوز به العراق إلى فارس وما يليها من بلاد

الشرق . وإنما كان شعراء نجد والعراق والحجاز يفدون الى الشام وفوداً يمدحون الخلفاء ويأخذون جوائزهم ، وربما وفدوا الى مصر يمدحون أمراءها ، وربما دفعت الأحداث بعضهم الى خراسان . ولكن الشعر العربي لم يستوطن شرق الدولة الاسلامية ولا غربها ، ولم يتجاوز الجزيرة العربية إلا الى العراق الذي كان يعد جزءاً منها أو كالجزم . فلما أديب لبني العباس من بني أمية نشأ في العراق شعر ، لم يثبت له شعر نجد ولا شعر الحجاز . فاستأثر العراق بالشعر طوال القرن الثاني ، وظلت بلاد الشام ومصر كما كانت يزورها الشعر ولا يستقر فيها . ثم ظهر في الشام شعر شامي مثله أبو تمام وأخذ الشام منه ذلك الوقت بحظه من الزعامة في الشعر . وكان القرن الرابع وكانت دولة الحمدانيين ، وكان سيف الدولة فاستأثر الشام بما كان العراق قد استأثر به في القرن الثاني ، وبما كان موزعاً بين العراق ونجد والحجاز في القرن الأول ، وبما كان نجد قد استأثر به قبل ظهور الاسلام . وظلت مصر طوال هذه القرون ضعيفة الحظ من الشعر ، ضعيفة الحظ من الأدب كله ، يفد أهلها الى الحجاز أو العراق أو الشام فيصيبون من ذلك حظاً ، وقد ينتقل اليهم نفر من أدباء

الحجاز أو العراق أو الشام فيلبون إماماً ، أويطيون المقام .
ولكن لم يكد يضعف أمر العباسيين في العراق والشام ، ولم
تكد تظهر القوة السياسية لمصر أيام الفاطميين حتى أخذ كل
شيء يدل على أن القاهرة تنهياً في القرون الوسطى لما تنهيات
له الاسكندرية في العصر القديم ، تنهياً لا يواء الحضارة
الاسلامية بما فيها من علم وأدب وفن وفلسفة ودين ، كما تنهيات
الاسكندرية لحماية الحضارة اليونانية ، تنهياً لتكون قبة الشرق
الاسلامى ، كما تنهيات الاسكندرية لتكون قبة الشرق الوثني
والمسيحي ، ويتم لها ذلك لسوء حظ الاسلام والأدب العربى .
كانت العجمة والجهل يدفعان الأدب العربى من الشرق الى
مصر ، وكانت المسيحية والجهل يدفعانه من الغرب الى مصر .
وكانت مصر ثابتة باسمه تستقبل ما يأتيا من الشرق وتستقبل
ما يأتيا من الغرب فتؤويه وتحميه وتحوطه ، وتتيح له أن
يحيا ويشمر . وكذلك ظلت مصر رافعة لواء الحياة الاسلامية
والأدب العربى تظل به العلماء والأدباء ، حتى كان سلطان
الترك العثمانيين واغارته على كل شيء ، وافساده لكل شيء ،
وقضاؤه على حضارتين في أقل من قرن : على الحضارة
الاسلامية في مصر ، وعلى الحضارة البيزنطية في قسطنطينية .

فأما الحضارة البيزنطية فقد هربت جذوتها من الترك الى ايطاليا حيث أشعلت أوربا كلها فأحيتها ، وأما الحضارة الاسلامية فلم تمنح في الحرب ولم تعبر البحر ولكنها اختبأت في الأزهر إلى أن يأذن الله لها أن تخرج منه ، فتشعل الشرق وترد اليه الحياة .

وكذلك ظل في مصر شعر وأدب كما ظل في مصر علم وفلسفة . وأنا أعلم أن الشعر المصرى طوال هذه القرون لا يستطيع أن يثبت لشعر نجد والحجاز والعراق والشام ، ولكنه على كل حال شعر كان يقال ويتأرجع عبيره ، ويرف نسيمه فيحيى النفوس والقلوب في عصر ماتت فيه النفوس والقلوب أو كادت تموت . وأنا أعلم أن الشعر المصرى في ذلك الوقت كان ضئيلاً نحيفاً خفيف النفس ، لا يكاد يسمع صوته ، ولكنه على كل حال كان شعراً حياً يمثل أمة حية ، ويعطف على شعوب بائسة . لجأت آلهة الشعر الى مصر فاستظلت بظاها واطمأنت الى هذا النسيم العليل الذى كان ينبعث من ضفاف النيل فيحفظ عليها ما كان قد بقى فيها من رفق . وأراد الله أن تكون مصر أسبق البلاد الشرقية الى التخلص من سلطان الترك قليلاً أو كثيراً . وأراد الله أيضاً

أن تكون مصر أسبق البلاد الشرقية الى تنظيم العلاقات بينها وبين أوروبا . وكان من ذلك أن سبقت مصر غيرها من البلاد الشرقية الى النهضة الأدبية . وكان من ذلك أن خرجت تلك الجذوة التي كانت مختبئة في الأزهر فلقيت بونابرت وأصحابه . ولم تلبث أن تبعهم إلى أوروبا ، فأقامت ما شاء الله أن تقيم ثم عادت قوية ملتبة . ولم تعد وحدها بل عشقها كثير من الأوربيين فتبعوها واستقروا معها في مصر يحيونها وتحيينهم . يعيشون فيها القوة والنشاط وتفتح لهم أبواباً من العلم والفن لم تكن لتفتح عليهم لولا أن اتصلوا بها واتصلت بهم . وكذلك ظلت القاهرة في العصر الحديث كما كانت في القرون الوسطى ملجأ الحضارة الإسلامية ، وميدان الالتقاء والاتصال بينها وبين الحضارة الأوربية . وبحي عصر اسماعيل فاذا تياران مختلفان يتنازعان مصر ، أحدهما يأتي من أوروبا في كتب العلم والأدب التي يحملها الوافدون وينقلها المبعوثون فلا تلبث أن تدرس وترجم ، والآخر يأتي من القاهرة نفسها ، يأتي من المساجد والأضرحة ودور الأعيان والأغنياء ، يخرج من مستقره مجلدات نحيفة أو ضخمة قد علاها الغبار وعبث بها اليل . ولكنه لا يكاد يصل الى بولاق او الى

غيرها من أحياء القاهرة حيث استقرت المطابع حتى يستحيل،
فاذا هو سبل غزير قوى عنيف فيه كثير من الصفو وفيه
قليل من الكدر . ويلتقى التياران في عقول الشباب المصرى،
في الأزهر حيناً وفي المدارس المدنية حيناً آخر فينتج من
التقاءهما هذا الجيل الأدبى الجديد الذى ظهر على رأسه
البارودى والذى نشأ فى حجره شوق وحافظ فى الثلث
الآخر من القرن الماضى .

(٣)

وقد تقارب مولد الشاعرين ، ولد أحدهما (شوقى)
سنة ١٨٦٨ وولد الآخر (حافظ) سنة ١٨٧١ تقارب مولدهما
فى الزمان ولكن نشأتهما اختلفت اشد الاختلاف . ولد
أحدهما بباب اسماعيل حيث البأس والعزة ، وحيث الغنى
والثروة ، وحيث الترف والنعم ، وحيث هذه العناصر
الكثيرة المتباينة التى تبعث الحياة فى ناحية من أنحاء النفس ،
وتبعث الموت منها فى ناحية أخرى ، وحيث هذا الاعتزاز
بالنفس والازدراء للشعب ، وحيث هذه الأثرة التى تخبل
الى صاحبها أن كل شيء مسخر له وأنه هو لم يسخر الا
ليستأثر بنعيم العيش .

وولد الآخر في ناحية مظلمة متواضعة من نواحي مصر ،
في أسرة مصرية لاحظ لها من غنى ولا ثروة ، لانصيب لها
من بأس ولا سلطان . أسرة من هذه الأسر التي تمتلئ بها
مدن مصر وقراها والتي تعودت منذ أيام المماليك أو قبل
أيام المماليك أن تشقى ليسعد غيرها ، وأن تعمل ليكسل غيرها
وأن تتألم في صمت وتحتمل المكروه في صبر واذعان . ولكن
أمر هذه الأسر كان قد أخذ يتغير في هذا الوقت ، فأتيح
لهذه الظلمة التي كانت تضرها وتحيط بها أن تنقشع عنها
بعض الشيء ، وأتيح لهذا الشعور الذي كان مغلولاً أن يجد
شبيهاً من الحدة ، وأتيح لهذا العقل الذي كان مغلولاً أن ينطلق
من عقالة بعض الشيء .

نشأ شاعرنا الأول في بيئته تلك فذهب الى الكتاب ثم
الى المدرسة ، ونشأ شاعرنا الآخر في بيئته هذه فذهب الى
الكتاب ثم الى المدرسة . كانا جميعاً يلقيان الفقيه في الكتاب
والمعلم في المدرسة ولكن كلاهما كان يعود إلى بيئته الخاصة .
فأما شوقي فقد كان يجد من بيئته الأرسقراطية ما يضعف في
نفسه أثر الكتاب والمدرسة ، وأما حافظ فقد كان يجد من
الفقيه والمعلم صدى لحياة أسرته الخاصة ومن هنا كانت نفس

شوقى أرسقراطية رغم ديموقراطية الكتاب والمدرسة ،
وكانت نفس حافظ ديموقراطية خالصة .

وجهت الظروف حافظاً نحو الحرب ، ووجهت السياسة
شوقى نحو القصر . والتقى الشاعران آخر القرن الماضى فى
ميدان واحد هو ميدان الشعر . وكان أحدهما قد تعلم ولكن
فى عزة ونعيم ، وارتحل ولكن الى حيث اللهو واللذة والى
حيث العلم والأدب والفن ، والى حيث الطبيعة المبتسمة
والجمال المضى . وكان الآخر قد تعلم ولكن فى فقر وبؤس
وارتحل ولكن الى حيث الكد الذى لا يفيد ، والعناء الذى
لا يغنى ، الى حيث الشمس المشرقة أبداً ، المحرقة أبداً ، الى حيث
الطبيعة المظلمة ، الى حيث الجمال الجافى الغليظ - ان صح أن
يكون الجمال جافياً غليظاً - الى حيث الجهل الذى لا غور له
والظلمة التى لا يتميز فيها شىء . مضى كل من الشاعرين فى
طريقه . هذا مبتسم سعيد يتغنى ، وهذا مكتئب محزون يشكو .
ثم عاد كل من الشاعرين الى القاهرة ، فأما أحدهما فالى حيث
كان ينتظره المنصب واللقب والثروة والترف وفراغ البال .
وأما الآخر فالى حيث كانت تنتظره البطالة والشوارع
والقهوات المنحطة والفقر والشظف وسوء الحال ، وهذا الهم

الثقل الكالح الذى يضاجع الفقير اذا أوى إلى سريرته، ويكشر له عن أنيابه إذا أراد أن ينظر إلى وجه الصبح . ثم يحالسه على مائدته المتواضعة ، ويعينه على أن يلبس ثيابه الرثة، ويرافقه حيث ذهب ويرافقه حيث جاء ، ويبعث فى صوته - مهما يكن حلواً عذباً - رنة حزينة مظلمة ، ويلقى على نفسه - مهما تكن صافية - غشاء مظلماً مفسداً لصور الأشياء والناس جميعاً .

نعم عاد الشاعران الى القاهرة فى هذه الحال ، واستقبل كل منهما أهل القاهرة بما أمكن أن تتغنى به نفسه من الشعر ، وسمع أهل القاهرة غناء حافظ وغناء شوقى فأعجبوا بشوقى وأحبوا حافظاً ، وكذلك انتقل إعجاب القاهرة بشوقى الى أهل مصر ثم الى أهل الشرق العربى ، وانتقل حب القاهرة لحافظ الى أهل مصر ثم الى أهل الشرق العربى ، ثم مات حافظ . فعزنت عليه مصر والشرق حزن المحب ، ومات شوقى فحزنت عليه مصر والشرق حزن المعجب .

(٤)

كنت مرة عائداً مع الاستاذ لطفى السيد بعد أن حضرنا اجتماعاً لتخليد ذكرى حافظ قبل أن يموت شوقى ، وكنا نتحدث فى أمر الشاعرين فقال لطفى بك : « لقد خدعنى

حافظ عن نفسه كما خدعني شوقي عنها ! كنت ألقى حافظاً
أول عهده بالشعر وكان يسمعي كثيراً من شعره فلا يعجبني ،
فقلت له ذات يوم : أرح نفسك من هذا العناء ، فلم يخلقك الله
لتكون شاعراً ! ولكنه لم يقبل نصحي وحسناً فعل ، فما زال
يجد ويكده حتى أرغم الشعر على أن يذعن له وأصبح شاعراً
وكنت شديد الإعجاب بشعر شوقي أقرؤه في لذة تكاد تشبه
الفتنة وأثنى عليه كلما لقيته ، فما زال شوقي يكسل ويقصر في
تعهد شعره حتى ساء ظني بشعره الأخير . .

كذلك كان يتحدث الى الأستاذ لطفي السيد في حافظ
وشوقي . وكذلك يتحدث إلى ديوان حافظ وديوان شوقي .
لا أكاد أبدأ الجزء الأول من ديوان حافظ حتى أجد تلميذاً
ضعيفاً شديد الضعف ، مضطرباً عظيم الاضطراب ، مقلداً
مسرفاً في التقليد . ولا أكاد أقرأ الديوان القديم لشوقي حتى
أجد طبيعة خصبة ، وقلباً فطر على الذكاء ، وخيالا حراً أريد
له أن يكون مطلقاً فأبت له البيئة والظروف الا أن يكون
مقيداً مغلولاً . ومن الغريب أنك تقرأ الديوانين فتري حافظاً يقلد
ويشعر بأنه مقلد ، ويلتمس الاجادة في هذا التقليد نفسه ، ولا
يتخرج من اعلان ذلك الى الناس ، بل لا يتخرج من التمدح به .

ويقرأ ديوان شوقي فترى شوقي يتكرر أو يحاول أن يتكرر، وهو يشعر بذلك ويعلنه الى الناس ويتمدح به، ولكنك تجد في هذا نفسه عنصر الفساد الذي سيقص من جناح شوقي ويضطره الى أن يكون أشبه بالطيور الداجنة منه بالطيور التي تسبح في الهواء ما اتسع لها الجو. تقرأ مقدمة ديوان حافظ. فاذا هي تحصر المثل الأعلى في محاكاة الشعراء المتقدمين من شعراء العصر الأموي والعباسي، وتقرأ مقدمة شوقي فاذا هو يلم بالشعراء المتقدمين إلاماً ويعجب بهم إعجاباً لا يخلو من التحفظ ولا يبرأ من التردد، ويعلن إعجاباً عريضاً بالأدب الأوربي وينبئنا بأنه مجدد لا يقلد الاكارها، ولكنه ينبئنا في الوقت نفسه بأنه قد وضع لنفسه في حياته الأدبية قاعدة ذكرها ثراً في هذه المقدمة وذكرها شعراً في الديوان حيث يقول:

ان الأراقم لا يطاق لقاءها

وتنال من خلف بأطراف اليد

فهو لا يستقبل التجديد ولكن يستدبره. وهو لا يدخل البيوت من أبوابها ولكن يأتيها من ظهورها. وهو لا يجدد في صراحة وشجاعة وثبات للخصوم، ولكنه يجدد في لباقة

ومداورة والتواء على المناهضين . وكأن هذه القاعدة قد صيغت من طبع شوقي فسيطرت على حياته الأدبية وسيطرت على حياته الشخصية أيضاً . فهو لم يواجه الناس بتجديد عنيف في الأدب قط ، وهو لم ينهض لخصومة ناقد من نقاده ، بل لم يجرؤ على أن يلقي نقاده بالعتب ، وإنما كان يعاملهم معاملة الأراقم لا يلقاهم ولكنه يأخذهم من خلف بأطراف اليد . يعرى بهم ويؤلب عليهم ثم يلقاهم باسماء وادعاء ، ولا يتخرج من زيارتهم واستزارتهم كأنهم من أحب الناس إليه ، ولم يكن في حياته اليومية عدو ظاهر إنما الناس جميعاً أصدقاءه وخلصاؤه ، يظهر لهم صفحة واضحة نقية ، ومن وراء هذه الصفحة صفحات بيض وصفحات سود . تلقاه في الجهاد ، وتلقاه في الاتحاد ، وتراه في السياسة ، وتراه في الأهرام ، وتراه في بار اللواء وتراه في البعكوك ، هادئاً دائماً لا يضطرب منخفض الصوت قلماً تسمعه دون إصغاء إليه .

كانت هذه القاعدة صورة لطبيعته ، وأي غرابة في هذا ! لقد ولد بباب القصر ، ونشأ في ظل القصر ، وقضى شبابه وكهولته غاملاً في القصر ، وفي القصر . حين كان سلطان القصر مطلقاً أو كالمطلق ثم حين كانت حياة القصر مداورة مستمرة بين

الشعب الطامع في الحرية والانجليز المعتدين عليها فليس غريباً أن يكسب شوقي في حياته الأدبية والشخصية هذه السياسة التي تحمي صاحبها ، وتضمن له الظفر والسلامة معاً .
وعلى عكس هذا كان حافظ أقل الناس حظاً من المهارة ، وأيسرهم نصيباً من المداورة ، وأعظمهم قسماً من الصراحة ، ما وسعته الصراحة ، فان ضاقت به فالتخوف الصريح ، والاشفاق الذي لا غبار عليه .

لقيته مرة عند صاحب الدولة محمد محمود باشا ، فأنشدني شعراً له يمدح به صاحب الدولة ، ويثني فيه على جهوده وبلائه في مفاوضة الانجليز . وكنت أعرف منه هذا الضعف وأحب أن أداعبه ، فقلت له - والرئيس يسمع ومن حوله جماعة من الاحرار الدستوريين - : « ما أجل هذا الشعر وما أقواه ! ، قال : « أسمعون ؟ سجلوا عليه فانه خليق بعد ذلك أن ينقذني ،

قلت : « اشهدوا على أني مستعد للثناء على حافظ في غير تحفظ إذا نشر هذا الشعر ،

قال مقهقهاً : « اذمني ما شئت في غير تحفظ ، فلن أنشر هذا الشعر لأنني لا أريد أن أحال على المعاش الآن ، قلت :

« فاني سأنشر فصلاً عنك كله ثناء وسأستشهد ببعض هذا الشعر ، وكنت قد حفظت منه شيئاً . قال : « ولا هذا ايضاً ، وقضى المجلس وقتاً طويلاً في الضحك من اشفاق حافظ . وكذلك كان حافظ مع النقاد يخافهم كما كان يخافهم شوقي ، ولا يثبت لخصومتهم كما لم يكن شوقي يثبت لخصومتهم . ولكنه لم يكن يغري بهم أحداً ، ولا يؤلب عليهم أحداً ولا يأخذهم من خلف بأطراف اليد ، وانما كان يعيث بهم اذا تحدث الى اصحابه ، ويعيث بهم اذا لقيهم ، ويتلطف لهم في كل حال .

كان شوقي مجدداً ملتوى التجديد ، وكان حافظ مقلداً أصريح التقليد ، ويمضى الزمن على حافظ وشوقي فاذا تقليد حافظ يستحيل - لا أقول الى تجديد بل أقول الى نضوج غريب وقوة بارعة وشخصية تفرض نفسها على الأدب فرضاً . واذا تجديد شوقي يستحيل شيئاً فشيئاً الى تقليد ، حتى اذا كانت أعوامه الأخيرة كانت قصائده كلها تقليداً ظاهراً للقديما من الشعراء ، لا يقتر فيه ولا يحتاج . ينشئ القصيدة فلا تحتاج الى تعب أو مشقة لتجد القصيدة القديمة التي يحاكيها ، سم هذا معارضة أو محاكاة أو تقليداً ، فذلك عندي سواء لأنه ينتهي الى نتيجة

واحدة ، وهى أن الشاعر قد رجع إلى القدماء يلتمس عندهم
مثله الأعلى . ومع ذلك فمن الخير أن نتعرف طبيعة الشعارين
ومزاجهما الفنى ، والينبوع الذى كانا يستقيان منه .

(٥)

فأما طبيعة حافظ فيسيرة جداً ، لا غموض فيها ولا عسر
ولا التواء ، وهذا اليسر هو الذى يحببها إلينا ، وهو الذى يجعلها
فى الوقت نفسه فقيرة قليلة الحظ من الخصب والفنى ، حافظ
تلميذ صريح للبارودى قلده منذ نشأ ، ثم تشجع فقلد المتقدمين
الذين كان يتأثرهم البارودى نفسه . وكما كان علم البارودى
بالأدب محدوداً لا يتجاوز الأدب القديم يحفظه وقلما يفقه
عميقه ، فقد كان علم حافظ محدوداً كذلك . كان حافظ عظيم
بالفرنسية ولكنه لم يكن يتقنها لا نطقاً ولا فهماً . سنقول
ولكنه ترجم البؤساء واشترك فى ترجمة كتاب فى علم الاقتصاد
مع صديقه مطران . وهذا حق فقد ترجم البؤساء أو مقداراً
من البؤساء ولكن فى أى مشقة ومع أى جهد ! رحم الله
حافظاً ، لقد لاقى فى ترجمة البؤساء عناء عظيماً ، عناء فى الفهم ، عناء
فى استشارة المعاجم ، وعناء فى الصيغة العربية نفسها . وكثيراً
ما كان حافظ يعجز عن فهم فكتور هوغو فيقيم نفسه مقامه

ويعوضنا من معنى الكاتب الفرنسي لفظه هو بما فيه من جمال
وجزالة وروعة ، أما كتاب الاقتصاد فسل صديقه مطران
ينبئك بالخبر اليقين . لم يستفد حافظ اذاً لأدبه وشعره من اللغة
الفرنسية شيئاً يذكر ، فهو غير مدين لأوربا بشيء من أدبه .
ثم لم يكن حافظ فقيهاً بالأدب العربي اذا توسعنا في معنى هذا
الأدب . لم يكن يحسن علوم العرب ولا فلسفتهم ، بل لم يكن
يعرف من هذه العلوم والفلسفة شيئاً . انما كانت ثقافته من
كتاب الأغاني ودواوين الشعراء ، وكان يفهم الأغاني والدواوين
بقدر ما يستطيع ، فيصيب كثيراً ويخطئ أحياناً . ويكفى أن
تقرأ مقدمة ديوانه وتراه يزعم أن السفاح قد أفنى أمة بأسرها
لبيتين من الشعر قالها سديف ، لتعلم الى أى حد بلغت ثقافة
حافظ ، فلم يفن السفاح أمة وانما نكل بالأسرة الاموية تنكيلاً
شديداً لم يفنها ولم ييدها . ولكن حافظاً كان يظن في أول
هذا القرن أن إفناء الأمويين افناء لأمة .

غنيت ذاكرة حافظ ، ولكن عقله ظل فقيراً ، فاعتمدت
شاعريته على الذاكرة من جهة ، وعلى الحياة المحيطة به من جهة
أخرى . استمدت موضوع شعره من هذه الحياة واستمدت
صورة شعره من تلك الذاكرة . وكانت ثقافة حافظ العقلية

محدودة فلم ينفذ عقله الى طبائع الأشياء ، ولم يصل الى أسرارها
فعجز عن اجادة الموضوع ، ولكن ذاكرته كانت قوية جداً
وكان حظه من الحفظ غريباً ، وكان قد ابتكر لنفسه سليقة
عربية أو قل سليقة اعراية فأتقن الصورة وبرع فيها ، وكان
أقرب تلاميذ البارودى الى البارودى .

تجد هذا الشعور حين تقرأ الفنون الشعرية التي برع فيها
حافظ ، حين تقرأ رثاءه وشكواه للزمان ، وتصويره للسياسة
والاجتماع . لن تجد في هذا الشعر عمقا ، ولئن حللته وأخرجته
من صورته الرائعة فلن يترك في نفسك أثراً ولكنك واجد
في صورته نفسها ، في الألفاظ التي يتخيرها الشاعر في الأسلوب
الذي يلائم به بين هذه الألفاظ ، ما يعلا نفسك لوعة وحزناً
وحباً وإعجاباً . كانت نفس حافظ بسيطة يسيرة لا حظ لها
من عمق ولا تعقيد ، وكانت لهذه الحصال نفسها محبة الى
الناس مؤثرة فيهم . وكان شعر حافظ صورة صادقة لهذه النفس
البسيطة اليسيرة فأحبوه كما أحبوا مصدره ، وأعجبوا به كما
أعجبوا ينبوعه .

ولما كانت نفس حافظ في جوهرها نفساً مصرية كانت
قطعة من هذه النفس المصرية الاسلامية ، التي تجد بساطتها

وسداجتها في كل أثر من آثار المصريين المسلمين ، فلم لا يحبها
الناس وانما يرون فيها أنفسهم ؟ ولم لا يعجب بها الناس وانما
ينظرون فيها الى صورهم ، تعكسها مرآة صافية وضيئة نقية
لا يشوبها صدأ ولا يغشاها غبار ؟

(٦)

هذه طبيعة حافظ يسيرة كما ترى ، أما طبيعة شوقي فشيء
آخر ، معقدة ينبثنا شوقي نفسه بتعقيدها . فيها أثر من العرب
وأثر من الترك وأثر من اليونان وأثر من الشركس . التقت كل
هذه الآثار وما فيها من طبائع واصطلحت على تكوين نفس
شوقي ، فكانت هذه النفس بحكم هذه الطبيعة أو الطبائع أبعد
الأشياء عن البساطة وأناها عن السذاجة ، وهي بحكم هذا
التعقيد والتركيب خصبة كأشد ما يكون الخصب ، غنية كأوسع
ما يكون الغنى . ثم لم تكد هذه النفس الخصبة الغنية المتوقدة
تتصل بالحياة حتى لقيت من حوادثها وتجاربها ، ومن كنوزها
وغناها ما يزيد لها خصباً الى خصب وثروة الى ثروة .

كان شوقي يحسن التركية وكان متقناً للفرنسية ، قد برع فيها
نطقاً وفهماً . وكان في أول أمره كثير القراءة حريصاً على الفهم
فقراً كثيراً ، وفهم كثيراً وتمثلت نفسه ماقرأ ومافهم ، وانضم

الى هذه العناصر التي كانت تركب طبيعته عنصر جديد هو
العنصر الفرنسي الذي عمل في عقله وخياله ومزاجه كله ، ونمت
العناصر الأخرى بالقراءة وبالحياة . عاشر شوقي العرب في
شعرهم وأدبهم فعظم حظه من العربية ، وعاشر الترك في حياته
اليومية ، واتصل بهم أشد اتصال فعظم العنصر التركي فيه .
ولسوء حظ الأدب الحديث لم يعاشر شوقي قدماء اليونان كما
عاشر قدماء العرب ، ولو قد فعل لأهدى الى مصر شاعرها الكامل .
كان شوقي في أول أمره مثقفاً يحب الثقافة ويشد في
طلبها والتزيد منها ، ولكنه كان كغيره من الشبان المصريين
يسرون في الدرس والتحصيل على غير هدى ، ولا سيما حين
يدرسون في أوربا ، لا يقرأون من الأدب الفرنسي مثلاً
إلا ما لا يبد للرجل المثقف من قراءته ، من هذه الآثار العليا
التي فرضت نفسها على الناس فرضاً ، فأما التأنق في الثقافة
والتماس الترف في الأدب فلاحظ لهم منه . كذلك كان
شوقي حين ذهب الى فرنسا آخر القرن الماضي . إذا ذكر
الشعر الفرنسي ذكر لامارتين وبحيرته التي ترجمها الى العربية ،
أو ذكر لافونتين وأساطيره التي قلدها في العربية ، وإذا ذكر
الفاسفة ذكر جول سيمون ، ومن المحقق أن آثار لامارتين

ولافونتين آيات في الأدب الفرنسي، وأن فلسفة جول سيمون لها قيمتها. ولكنك لا تلاحظ أن شوقي يذكر بودلير أو فرلين أو سولي بريدوم أو مالرميه من الشعراء الفرنسيين، ولا أنه يذكر تين أو رينان أو برجسن من الفلاسفة. ذلك لأنه لم يكن يسير في ثقافته على هدى، وإنما كان يأخذ من الأدب لفرنسي أيسره وأدناه إلى متناول اليد. وكذلك كان تجديد شوقي متأثراً بهذا الحظ من الثقافة الفرنسية، أي أنه كان يتأثر بالقديم الفرنسي أكثر مما كان يتأثر بالجديد. ولو قد اتصل شوقي بالمجددين الذين عاصروه في شبابه من شعراء الفرنسيين لسلك شعره سبيلاً أخرى. ولكنه لم يفعل، ولكنه لم يطلق لطبيعته على ما هي عليه حريتها، بل قيدها وردّها كارهة على أن تتأثر في إنتاجها الأدبي بسياسة القصر حينئذ وما كان يحيط به من الظروف. ولو قد أطلقها أو أرسل لها العنان لبعض الشيء لغيرت حياة الشعر العربي الحديث. ولست في حاجة إلى أن أتكلف المشقة في الاستدلال على ذلك، فقد كانت طبيعته شوقي من الخصب والقوة بحيث لم تكن تذوق أثراً أدبياً يمكن محاكاته إلا حاولت هذه المحاكاة وجدت فيها. وكانت توفق أكثر الأحيان في هذه المحاكاة توفيقاً عظيماً.

فلو أن شوقي قرأ الالياذة والأودسا كاملتين وفهما حق الفهم وأطلق لنفسه حريتها لحاول أن ينشئ الشعر القصصى فى اللغة العربية. لا أقول على نحو ما كانت الالياذة والأودسا من الطول، ولكن على نحو ما كانت الالياذة والأودسا من الفن. ولو أن شوقي قرأ تمثيل اليونان وتمثيل المحدثين وأطلق لطبيعته حريتها لعنى بالتمثيل شعراً وثراً فى شبابه ولأعطى اللغة العربية من هذا الفن حظاً له قيمة صحيحة. ولو أن شوقي قرأ شعر الشعراء الفرنسيين الذين عاصروه فى شبابه، ولو أنه اختلف الى أنديتهم فى باريس حين كان يقيم فيها (ولم تكن أنديتهم مغلقة) لتغير مثله الأعلى فى الشعر، ولما نظر الى القدماء من العرب ولا الى لامارتين ولا فونتين وأضرابهما من الفرنسيين إلا كما ينبغى ان ينظر اليهم الشاعر الحديث. أى من حيث أنهم يكونون أصل الثقافة ومن حيث أنهم يتمتعون القارىء باللذة الفنية، لا من حيث أنهم المثل العليا للشاعر فى هذه الأيام. ولكن شوقي قصر بنفسه عن هذه المنزلة أو قصرت به الظروف، اما لأنه لم يقرأ كما كان ينبغى أن يقرأ، واما لأنه لم يعمل كما كان ينبغى أن يعمل، تقصير فى القراءة ومجاراة الانتاج الأدبى الأجنبى من جهة، وتفريط فى

ذات الحرية الأدبية، وخضوع لأحكام السياسة من جهة أخرى .
هاتان الخصلتان هما اللتان قصتا جناحي شوقي فلم يستطع أن
يرتفع الى حيث كانت تعده طبيعته من سماء الشعر والخيال .
وأغرب من هذا وأبلغ في الحزن والأسى أن هذه الطبيعة البارعة
التي لم تعرف مصر مثلها في عصرها الاسلامي العربي . والتي لم
يعرف التاريخ الادبي العربي مثلها منذ كان أبو العلاء لم توجه الى
فهم الآيات الادبية الخالدة في الآداب الأجنبية، ولم تتعمق في
درسها، واستكشاف أسرارها كما ينبغي . وإنما علم شوقي بهذه
الآيات العليا من آداب اليونان والرومان والفرس
والأوربيين على اختلافهم كان ضئيلاً رقيقاً، لا هو بالعريض ولا
هو بالعميق . كان شوقي يجهل حقيقة هذه الآيات فاذا عرف
شيئاً منها فأنما يعرفه بالشهرة ، وعلى نحو ما يتعلم الناس الذين
يكتفون بدوائر المعارف أو بما يكتب للطلاب في الكتب
المدرسية، وليس هناك دليل على ذلك أوضح من هذه القصيدة
التي أنشأها شوقي في شكسبير ونشرها في الجزء الثاني من
ديوانه صفحة (٥) فاقل ما يحسه قارئها أن شاعرنا لم يعلم
من أمر شاعر الانجليز إلا شيئاً ضئيلاً جداً يعرفه المثقف
العادي ، وهو على كل حال لم يفهم روح شكسبير ولم يمثله

ولم يحسن بل لم يحاول تصوير هذا الروح . وكل ما في القصيدة مدح لانجلترا أول الأمر ، ثم ثناء على شكسبير غريب ، يشبه فيه آيات شكسبير بالآيات المنزلة ، ويشبه معاني شكسبير بعيسى . ولست أدري ما هذا الحسن المشترك بين معاني شكسبير وبين المسيح . بل لست أدري كيف يذكر شكسبير المتأثر بوثنية القدماء وآداب الشمال الأوربي الى جانب المسيح ، وكيف يشبه أدب شكسبير بالانجيل . انما هو كلام يقال ويعتمد صاحبه على أن الذين سيقروا به ستروعهم الألفاظ دون أن يبحثوا عن المعاني لأنهم لا يعرفون من أمر شكسبير ، ولا من أمر المسيح والانجيل شيئاً كثيراً . ثم يقول شوقي إن قصص شكسبير تمثل الحياة ، وكل مثقف يعرف هذا ويقول له ، بل كل مادمح لشاعر من الشعراء الممثلين يقول فيه هذا ، بالحق حيناً وبالباطل أحياناً . ثم يتجه شوقي الى شكسبير فيسأله أسئلة عادية قد ألفها الناس منذ قرأوا رثاء أبي العلاء ، وعرفوا تصويره لبلى الأجساد في القبور . ثم يطلب الى شكسبير الذي أجرى الدم أنهاراً في قصصه أن ينهض ليرى كيف جرى الدم بحاراً في ظل الحضارة الحديثة ، ويذم الحرب كما يذمها كل انسان هذا علم صاحبنا بشكسبير وهذا

تصوير شاعرنا له ورأيه فيه .

وأين يقع هذا كله من آراء الشعراء الفرنسيين والألمان المحدثين في شكسبير . وإني لأعرف محاورات لجوت حول بعض القصص التي تركها شكسبير حول هملت مثلاً في ولهم ما يستر ، لا يذكر معها ما قاله شوقي من الشعر . ومع ذلك فقد كان من الحق على شاعرنا أن يكون عليه بشكسبير أوضح من علم الألمان والفرنسيين به في القرن الثامن عشر ، لأن فقه هذا الشاعر العظيم قد تقدم في قرن ونصف قرن تقدماً عظيماً . ومثل هذا ما يقال في علم شاعرنا بأفلاطون وأرسطاليس . وقد لاحظت قديماً أن شوقي أراد أن يثنى على الأستاذ لطفى السيد حين ترجم كتاب الأخلاق لأرسطاليس فنسب إلى المعلم الثاني آراء أستاذه أفلاطون ، لأنه لم يقرأ هذا ولا ذاك وإنما عرف أطرافاً من فلسفة هذا وذلك في دوائر المعارف ، وفي الكتب المدرسية . هذا التقصير في الدرس والتحصيل ، وهذا الكسل العقلي أصاب شوقي وأصاب حافظاً ، وقصر بالشاعرين عن المكانة العليا التي كانا خليقين أن يبلغاها بطبيعتهما القويتين . وكثيراً ما نعت عليهما ولومتهما في ذلك . ولكن حظ شوقي من هذا التقصير

اعظم من حظ حافظ. لأن شوقي هيء له من وسائل الثقافة العربية والأجنبية ما لم يهيا لحافظ، كما رأيت ولأن شوقي هيء له من النعيم، وأسباب الترف والراحة ما كان يستطيع معه أن يفرغ للدرس ساعات من نهار بين حين وحين. على حين حرم حافظ كل شيء أو كاد يحرم كل شيء، وعلى حين لم يكن حافظ يزعم لنفسه ما كان يطمح إليه شوقي من مكانة ومنزلة في الشعر.

(٧)

وتمضى الأيام على حافظ وشوقي بعد أن عرفهما جمهور الأدباء في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ويسلك كل منهما طريقه في التطور الأدبي.

فأما حافظ فقد لقي الأستاذ الامام واتصل به وأصبح له صديقاً، وماهى إلا أن يتصل بأصدقاء الأستاذ، وفيهم العالم الأزهرى كالشيخ عبد الكريم سليمان، وفيهم المجدد في الاجتماع كقاسم أمين، وفيهم القاضى الثبت الذى أدرك حظاً عظيماً من المجد، ولكن أستار الغيب ما زالت مسدلة بينه وبين مستقبل عظيم كسعد زغلول، وفيهم رؤساء العشائر

والأسر الكبرى كحسن عبدالرازق وعلي شعراوي ومحمود سليمان . فيهم كل هؤلاء على اختلاف نزعاتهم وميولهم وأهوائهم ومنازلهم الاجتماعية . وهم جميعاً متفقون على أن حال الشعب سيئة وعلى أن استنقاذ الشعب من هذه الحال فرض عليهم هم قبل غيرهم من الناس ، وهم يسلكون الى هذا سبلاً مختلفة . ويتصل حافظ بغير هؤلاء من زعماء السياسة الحادة والملتوية في أول هذا القرن ، يعرف مصطفى كامل وعلي يوسف ، يتحدث الى هؤلاء جميعاً ، يأنس الى بعضهم وينفر من بعضهم الآخر ، وأولئك هؤلاء يحبونه ويؤثرونه بالموودة والبر .

فانظر الى ابن الشعب وقد رفعه الشعر الى أعلى مكانة حيث تتنافس فيه الأرستقراطية الشعبية وتحرص على قربه والأنس به ، وهو على ذلك لم يقطع صلته ولن يقطعها بأترابه من أوساط الناس ، بل هو شديد الاتصال بجماعة من الشعراء والأدباء والبائسين . يأنس اليهم ويعطف عليهم ويصفهم مودته ويبحث عنهم إن طال عهدهم به . وهم يعرفون منه ذلك ويرضون ثم يتجنون ، ثم يسرفون في التجنى والتحكم . وأخبار إمام العبد مع حافظ رحمهما الله لا تزال معروفة

يتفكه بها الناس ، ومجالس حافظ في قهوة متاتيا وقهوات باب
الخلق وقهوات الناصرية معروفة مذكورة أيضاً .

هو إذا صديق الشعب كله ، صديق الفقراء والأغنياء
وأوساط الناس ، صديق العلماء المستنيرين وصديق إغريهم من
الذين لاحظ لهم من ثقافة أو ليس لهم من الثقافة إلا حظ
ضئيل ، تراه في كل بيئة وتراه في كل مكان ، تراه في حديقة
الازليكية يقرض الشعر ، وتراه في الشوارع يمشي أصدقاءه ،
باسم الشجر مشرق الوجه ، مظلم النفس ضاحكاً مما يحزن وما يسر .
خالط الناس جميعاً فأصبح هو الناس جميعاً ، وصور نفسه
في شعره فصور بها الناس جميعاً . ثم يموت الأستاذ الامام
ويتبعه قاسم ويتبعهما مصطفى كامل ، ويظهر نبوغ حافظ في
الثناء بموت هؤلاء الناس الذين كانوا أصدقاءه ، لأنهم كانوا
أعلام الأمة وذخرها ، جزع أنصار الإصلاح الديني والاجتماعي
لموت الأستاذ الامام وموت قاسم ، فكان شعر حافظ أصدق
صورة لهذا الجزع لا غلو فيها ولا تقصير ، ولا ضعف فيها
ولا وهن . وجزع الشعب كله لموت مصطفى كامل فكان شعر
حافظ صورة صادقة لهذا الجزع ، نار ملتبهة ولوعة لا حد لها
وأخذت حياة حافظ تقفر من حوله بموت الأصدقاء وسوء

الحال ، ففنى ولكن في مصر ، وأبعد ولكن في القاهرة ، وأسند إليه منصب في دار الكتب فأصابه مثل ما أصاب شوقي . واضطر الى أن يصانع ، ويدارى ويحسب للقول حساباً ، ويكظم نفسه على ما تكره ، ويترك شعبه من غير ترجمان . رحم الله حشمت باشا ! أراد أن يبر صديقه ويحميه من البؤس والشقاء ، ويمهد له حياة ناعمة راضية فخرم أمته شاعرها وطمر أو كاد يطمر هذا النبوع الصافي العذب . ذلك أن حافظاً كان لا يزال ناشئاً في الشعر على تفوقه وبراعته ونبوغه في السياسة ، كان في حاجة الى أن تحفظ له حرية واسعة مطلقة ليلبغ شعره أشده ولينبسط ظله على مصر كلها ، فجاء هذا المنصب عقبة في سبيل النبوغ ! خيل الى حافظ والى الذين أسندوا اليه هذا المنصب أنه سيخلص من البؤس فيفرغ للشعر ، ولم لا ؟ لقد عرفت فرنسا كيف تستثمر شعراءها . ألم تسند الى الكونت دى ليل منصباً كمنصب حافظ في مكتبة مجلس الشيوخ ، فلم يؤثر ذلك في شعره الا أحسن الأثر جودة ونمواً وخصباً ، فلم لا يكون حافظ مثل غيره من الشعراء ؟ آه ! لأن مصر ليست كغيرها من البلاد ، ولأن البيئة المصرية ليست كغيرها من البيئات . مصر في حاجة الى المحن ، لم تألم بعد كما يفنى ، ولم

تصهرها الهوم كما ينبغي ، مصر في حاجة الى العلم ، مصر في حاجة الى الثروة الأدبية ، مصر في حاجة الى النشاط المتصل أشد أعدائها الراحة ، وكذلك أبنائها جميعاً وكذلك شعراؤها بنوع خاص . كان بؤس حافظ في نفسه شرطاً لاتصال شعره ونمو نبوغه ، كان حافظ محتاجاً الى أن يظل بائساً ليرى بؤس الشعب من حوله وليحسه وليصوره . ولكن حافظ غنى بعد فقر ، واطمان بعد اضطراب ، فهدأت نفسه ثم اشتد بها هذا الهدوء ، فضاق بالحياة وضائق به الحياة أيضاً .

وليت حافظاً وقد فقد البؤس الذي كان سبيله الى المجد لم يفقد الحرية ! فقد كان يستطيع مع الحرية أن يجد له في القول مذهباً . ولكن الموظفين في مصر عبيد مهما تكن الحكومات القائمة ، يجب أن يقدرُوا لأرجلهم موضعاً قبل الخطو ، وألا يقولوا الا بمقدار !

ولم يكن حافظ عظيم الثقافة ولا عميقها ، فلم يكن من الممكن ولا من اليسير أن يتجه الى تلك الفنون الشعرية الخالصة التي تصل بين الشاعر وبين الطبيعة ، والتي ليس للسياسة ولا للنظام عليها سلطان . لم تكن النجوم في السماء ولا الرياض

في الأرض ، ولا النيل ولا الصحراء تلهم حافظاً شيئاً ، لأن
حافظاً لم يكن شاعر الطبيعة ، وإنما كان شاعر الناس .

في سبيل الله هذه الأعوام الطوال التي قضاها حافظ في
دار الكتب لا يعمل شيئاً ، ولا يقول شيئاً ، وإنما يقضى
صباحه في الدار يعث بالموظفين ويتندر عليهم ، أو على باب
الدار يدخن سيجاره الضخم ، أو في قهوة دار الكتب يدخن
الشيشة ، فإذا كان المساء أنفق وقته بين أصدقائه في الأندية
الخاصة أو العامة !

على هذا النحو قضى حافظ ثلث حياته ، يرى من مات
ولكن بحساب ، ويقول هذا الشعر الذي يقال في المناسبات ،
والذي لا يدل عادة على شيء . ولا تكاد ترد الحرية الى
حافظ بأحواله على المعاش حتى يتنفس ، وإذا هو قد اتصل
بالشعب من جديد ، وإذا هو يتأهب لينفجر ويرسل زفرات
الشعب ناراً مضطربة تلهم ما حولها ، ولكنه شيخ قد
تقدمت به السن وذهبت بقوته الراحة في دار الكتب ،
وضاع نشاطه هباء مع دخان الشيشة والسيجار ، فلا تثبت
قواه الفانية لهذه الأمانة الثقيلة التي نهض بها شاباً وكهلاً ،
وكان يستطيع أن يستقل بحملها حين بلغ الأربعين ، وحين

أسند إليه المنصب في دار الكتب فيقضى ! وإن أصدق
يقال فيه لقول الشاعر القديم في عمر :
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها

بوائق في أكمامها لم تفتق

(٨)

وأما شوقي فيمضي في طريقه التي رسمها لنفسه منذ أرسل
من باريس همزته التي يمدح بها الخديوى :
« خدعوها بقولهم حسناء . . . »

فطلب القصر الى الجريدة الرسمية أن تسقط الغزل وتنشر
المدح ، وود الشيخ عبد الكريم سلمان لو أسقط المدح ونشر
الغزل فلم ينشر من القصيدة شيء ، وعرف شوقي أن لا بد
من الاحتياط في التجديد .

يمضي شوقي في هذه الطريق موظفاً في القصر شاعراً
للأمير يمدحه كلما نادى إلى ذلك داع ، وحين لا يدعوا إلى ذلك
داع يتفنن في هذا المدح فيجيد مقدماته غزلاً ووصفاً ولا
يجيد في المدح نفسه إلا قليلاً .

وكان شوقي كما يقول في مقدمة ديوانه القديم يكره المدح ،
وينكره على الشعراء المتقدمين ويود لو برىء الشعر من

التهاك عليه والتنافس فيه ، ولكنه نشأ راغباً في أن يتصل
بالأمير ، حريصاً على أن يكون شاعره ، حاسداً للمتنبئ على
سيف الدولة ، وقد اتصل بالأمير وأصبح شاعره ، فهو سعيد
بذلك يعتز به ويفخر ويتمدح :

شاعر الأمير ، وما بالقليل ذا اللقب !

نعم ليس قليلاً هذا اللقب في رأى شوقي ، فقد كان أمنيته
صياً ، وقد كان أمنيته شاباً يطلب العلم في مصر ، وبطلبه في
أوروبا ، ليس بالقليل وقد رأى شوقي مكانة « عليّ الليثي » من
الأمير ومن الناس ، ليس بالقليل في هذه البيئة التي لا تزال
تذكر عهد اسماعيل وما كان فيه من رفع وخفض ومن عز
وذل ، ومن سلطان للحاشية والمقرين ليس بالقليل ، بل هو
قد يكون مفيداً ، قد يكون مذكياً لنار الشعر بمهدأ سبيل
التفوق والنبوغ اذا كان الأمير أديباً كسيف الدولة ، أو كان
هم الأمير بعيداً في الامارة والسياسة . ولكن أمير شوقي لم
يكن أديباً فلم يفهم شوقي من هذه الناحية ، ولم يكن أمير
شوقي بعيد الهمة لأنه جرب بعد الهمة فسمات عاقبة التجربة ،
وعرف صدق المثل القائل : « أفلح من طار بجناح ، أو
استسلم فأراح ، وآثر السلامة والراحة ، وعكف على أموره

الخاصة يعنى بها وعلى ثروته الخاصة ينمىها ، وأين يكون ذلك
من شعر شاعر الأمير ؟

شوقى إذن كحافظ يوم نفى الى دار الكتب ، ربة شعره
سجينة ، ولكنها سجينة فى قفص ذهبي هو القصر ، تتغنى
ولكن بغناء فاتر متشابه بالمدح ، وقد قيد شوقى ربة شعره
هذه بنفسه منذ كان فى باريس ، فلما عاد الى مصر ظهر أن
القيد الباريسى لم يكن ثقيلًا كما ينبغي ، فأضيفت اليه قيود
وأغلال وأصبحت ربة الشعر أسيرة الأمير لا تنطق إلا بما
يريد وحين يريد . وكان الأمير ذكيًا وكان الشاعر ذكيًا أيضًا .
واذا لم يتح للأمير أن يجعل من شوقى أبا الطيب كما فعل
سيف الدولة ، أو فرجيل كما فعل أغسطس . فقد يستطيع
الأمير أن يستعين بشوقى الذكى على تدبير أموره الخاصة ،
ويستطيع شوقى الذكى أن ينال حظوة الأمير بالسياسة إن لم
يستطع أن يحبب اليه الشعر . وكذلك يصبح الشعر سمة
لشوقى لا صناعة ، ويستحيل الشاعر الى رجل من الحاشية ،
ورجل القصر يدور حول الأمير ، ويلتوى ما التوت سياسة الأمير ،
يتحفظ فى حديثه العادى فكيف به اذا مات الأستاذ الامام
أو قاسم أمين أو مصطفى كامل ! وكيف به إذا جزع الشعب

لنشواى ! وكيف به اذا طالب الشعب بالدستور !
هو شاعر الأمير فخير له أن يسكت فاذا لم يكن بد من
القول فحق عليه أن يحتاط . ثم هو شاعر الأمير يجب أن يفكر
ويتدبر فيما يحدث بينه وبين الناس من صلة ، يجب أن يقيس
صداقته وعداوته وقربه وبعده برضى الأمير وسخطه . واذا
فإن تكون بينه وبين طبقات الشعب المختلفة هذه الصلة الواضحة
الصريحة . هذه الصلة التى تجمع بين قلب الشاعر وقلب الشعب
الصافية لن يحس شوقى ما كان يحس حافظ من حياة الشعب ، وإن
أحسه فلن يستطيع الا الاعراض عنه ، ليس شوقى ترجمان
الشعب ولسانه ، وإنما هو ترجمان الأمير ولسان الأمير . وما
أشد ما كانت تتسع مسافة الخلف بين الشعب وبين الأمير . ومن
هنا تستطيع أن تقرأ رثاء حافظ وشوقى لمصطفى كامل
فستحس فى شعر حافظ قلب الشعب يخفق ، وسترى نفسه
تضطرم . وستجد فى شعر شوقى هذا البيت الذى سخر منه
الأستاذ مصطفى صادق الرافعى بحق ، لأنه لا يدل على شيء
الا على أن الشاعر مجامل يريد أن يقول شيئا :
أو كان للذكر الحكيم بقية لم تأت بعد رثيت فى القرآن !
ومع أن ثقافة شوقى أخصب وأغنى من ثقافة حافظ فلم

يستطع شوقي أن يفرغ للشعر الخالص في قفصه الذهبي ، كما
أن حافظ لم يستطع أن يفرغ لهذا الشعر في دار الكتب ،
لا لأن شوقي كان يؤثر الفراغ وندخين الشيشة والسيجار ،
بل لأن الشخصية القوية التي كان يمتاز بها الأمير استطاعت
أن تستأثر بشوقي وتفنيه في السياسة وتدير أمور القصر ،
ويريد الله وتريد الأحداث أن تطلق ربة الشعر من عقالها ،
وأن تخرج من هذا القفص الذهبي فلا تعود إليه ، ولكن بعد
ماذا ؟ بعد أن أنفق شوقي ربع قرن سجيناً في كنف الأمير
أو في قصره !

حيل بين الأمير وبين الامارة والقصر ، وحيل بين
حاشية الأمير وبين القصر أيضاً ، فمنهم من تبع الأمير ،
ومنهم من تخلف عنه ، وكان شوقي من المتخلفين .

أفرحت ربة الشعر بحريتها ؟ أرضيت ربة الشعر بهذا
الهواء الطلق تنفسه متى شاءت ، وبهذا الجو الفسيح تطير
فيه كيف أحببت ؟ وبهذه الأشجار الباسقة والحدائق النظرة
تنزل منها حيث أرادت مفردة بصوتها العذب مصفقة بجناحيها
القويين ؟ لست أدري ، ولكن الذي يكرره الناس ويؤكدونه
أن ربة الشعر ضاقت بحريتها أول الأمر ، وودت لو تعود

الى سجنها الجميل الذى ألفته واستعذبت المقام فيه ، ويقال
إنها استفتحت باب القصر بتلك القصيدة المشهورة الجميلة :
الملك فيكم آل اسماعيل . لا زال بيتكم يظل النيل

والتي يقول فيها هذا البيت المشهور :

أخون اسماعيل فى أبنائه . ولقد ولدت ياب اسماعيل
ولكن باب القصر لم يفتح وأعرض الشاعر عن أميره ،
لم يلحق به ، وأعرض القصر عن شاعر الأمير فلم يفتح له ،
وما هى الا أن يظلم الشاعر ، يظلمه الأجنبي فتضيق به أرض
مصر ويؤمر بالرحيل ، فالى أين يذهب ؟ أيزهد الى قسطنطينية
حيث أخواله وعمومته من الترك وحيث الأمير ؟ أم يذهب
الى فرنسا حيث الشباب الغض والذكرى المبهجة ؟ ولكن
الحرب فى قسطنطينية والأمير فى قسطنطينية ، ولكن الحرب
فى فرنسا والحرب فى أكثر بلاد أوروبا . هنا اختارت ربة الشعر
وطناً من أوطانها ففكرت فى أسبانيا واستقرت فى الأندلس .
ولم تكن ربة الشعر فرحة ولا مبهجة ، وإنما كانت محزنة عميقة
الحزن ، محزنة على القصر ، محزنة على الوطن ، محزنة على هذه
الآمال التى قضبت قضباً ، وربة الشعر تحيى النفوس دائماً متى
تغنت . تحيىها بالغناء الفرح وتحيىها بالغناء الحزين . وقد تغنت

ربة الشعر في الأندلس فأحيت نفوس المصريين ، وأذكت في
هذه النفوس جذوة الوطنية ، ووصلت قديم العرب في
الأندلس بجديدهم في مصر . إيه ياربة الشعر ! احزني على
سجنك ما استطعت وابكي عليه ماشئت ، فان حزنك يملأ
نفوسنا بهجة ودموعك تنقع ما في قلبنا من ظمأ . لقد وجدناك
بعد أن فقدناك ، لقد رضيت في ظل القصر فغضبنا . فتعلی
الآن شيئاً من الايثار في المنى ، اغضبي أنت واسخطي لنبتهج
نحن ونرضى !

وكذلك حياة الشعراء ، قد صورها العباس بن الأحنف
فأحسن تصويرها في هذا البيت :

كنت كأنى ذبالة نصبت تضيء للناس وهي تحترق
وتضع الحرب أوزارها ويؤذن للشاعر أن يعود الى
وطنه فيعود قوياً شديداً للنشاط . ولكنه لا يكاد يبلغ القاهرة
حتى يرى القصر فيحن اليه ويدنونه ، والقصر لا يعرفه ولا
ينكره ، لا يدنيه ولا يقصيه . إيه ربة الشعر ! ليس الى السجن
سبيل . اقنعي إذا بهذه الحياة الحرة ، انظري ، إن همك بعيد
وانك لمسرة في الطمع . ماذا ؟ اتضيقين بالحرية ! وان الشعب
المصرى من حولك ليسفك دمه في سبيل الحرية ! لا ترفعي

بصرك الى السماء، فان النجوم باقية والشمس باقية، وقد تستطيعين
أن تنظري الى النجوم والشمس بعد حين . ولكن اخفضي
بصرك ، انظري الى الأرض ، لن ترى عليها ذهب اسماعيل
ولكنك ستجدين عليها دم أبناء النيل يراق في سبيل هذه الحرية
التي تضيقين بها وتنفرين منها ! ويخفض الشاعر بصره الى
الأرض ويرى الشاعر أمته تراق دماؤها وتنتهك حرمتها،
وتأمل في كل شيء ولكنها ترتقب الأمل من كل شيء ! يا للطبيعة
الخصبة ! يا للقلب الذكي ! هذا شاعر القصر يصبح شاعر الشعب !

نعم لقد عز على شوقي فراق سجنه الذهبي ، لقد حن الى هذا
السجن مرة ومرة ، وما أرى أنه كان يذكر هذا السجن والحنين
اليه وهو يقول هذا البيت من قصيدته في مشروع ملنر :
من يخلع النير يعيش برهه في أثر النير وفي ندبه

ولكنه قد ذاق الآن لذة الحرية ، وظهر فيه عنصره العربي
وعنصره اليوناني ، فهو يحب الهواء الطلق وهو يحب
الديمقراطية ، وهو ينزل الى الشارع ويطوف فيه حيث يلقى
الناس ويتحدث اليهم ، ويسمع منهم ويشاركهم في لذاتهم
وآلامهم ، ثم يرقى الى سماء الشعر فاذا هو ترجمانهم الصادق

ومراتهم المجلوة الصافية . وكذلك الشعب قوى دائماً، جذاب دائماً ، منه رفعة العظيم وبه خمول الخامل . رفع حافظاً حتى تنافس في قربه العظماء ، وجذب شوقي حتى فتن بعامة الناس وأغمارهم . وكانت هذه الفتنة مصدر عظمته الباهرة ونبوغه الصحيح لقد كان شوقي في أول أمره شاعراً أثراً ، يحب نفسه ويلتمس لها أسباب اللذة والنعمة ، ثم شاعراً موظفاً يقف ملكاته على الأمير والسلطان ، ثم عاد الى نفسه ثم رد الى شعبه فأصبح شاعر الفن وأصبح شاعر الشعب . ماذا ؟ بل وسع شعر شوقي في هذا الطور من أطوار حياته مصر والشرق العربي الناهض كله . لقد كان في شبابه يذكر الشرق والاسلام ، ولكن الشرق والاسلام في ذلك الطور كانا أسيرين في يد السلطان من آل عثمان . أما الآن فالاسلام دين الحرية والعدل والمساواة بين الأمم والشعوب ، لا دين الملوك والأمراء وحدهم ، والشرق أمم مضطربة ناهضة تسمو الى المثل العليا وتجد في السمو اليها ، والشاعر يلتمسها عند نفسها ، يلتمسها في الصحف ، يلتمسها في الكتب ، يلتمسها في الأندية ، يلتمسها في الشوارع والقهوات والأسواق والخوانيت ، يلتمسها حيث تعيش وحيث تنمو ، لا حيث كان يلتمسها من قبل في قصر

الأمير وفي ظل السلطان ، أصبح شوقي شاعر مصر كما أصبح شاعر الشرق العربي .

وصل شوقي في شيخوخته الى ما وصل اليه حافظ في شبابه ، لأن شوقي سكت حين كان حافظ ينطق ، ونطق حين اضطر حافظ الى الصمت ، يالسوء الحظ ! ليت حافظاً لم يوظف قط ، ولت شوقي لم يكن شاعر الأمير قط ! ولكن هل تنفع شيئاً ليت ؟ . لقد أسكت حافظ ثلث عمره ، وسجن شوقي ربع قرن ، وخسرت مصر والأدب بسعادة هذين الشعارين العظيمين شيئاً كثيراً . وتتقدم السن بشوقي وتكثر الحوادث من حوله ويشتد بشاعريته النشاط ، فاذا جناح شعره ينبسط ، وينبسط حتى اذا أظل الشرق العربي كله عاد شوقي فرفع بصره الى السماء بعد أن ملأ عينيه بما في الأرض ، واذا هو يرى في السماء الفن الخالص ، يرى التمثيل ويرى الغناء فينفق بقية عمره في التمثيل والغناء . أما في الغناء فقد أجاد من غير شك ، وأما في التمثيل فقد غنى فأطرب وأثر في القلوب ، ولكن لم يمثل شيئاً لأن التمثيل لا يرتجل ارتجالاً ، ولا يهجم عليه في آخر العمر ، وانما هو فن يحتاج الى الشباب ويحتاج الى الدرس

ويحتاج الى القراءة الكثيرة . وقد أضع شوقي شبابه في القصر .
وقد أضع شوقي نشاطه وحدة ذهنه قبل أن يفرغ للدرس .
وقد كان شوقي قليل القراءة ، فكان تمثله سوراً ينقصها الروح
وان حبها الى الناس ما فيها من براعة في الغناء .

(٩)

ثم يقبل صيف هذا العام فيخترم حافظاً ، وهو يتأهب
للحرب كما تأهب أخيل بعد أن انحاز تحت الخيمة دهرأ .
ويقبل خريف هذا العام فيطفيء جذوة شوقي في هدوء ودعة
يلأثمان ما كان يمتاز به شوقي في حياته من هدوء ودعة . وكلا
الشاعرين قد رفع لمصر مجداً بعيداً في السماء . وكلا الشاعرين
قد غذى قلب الشرق العربي نصف قرن ، أو ما يقرب من نصف
قرن بأحسن الغذاء . وكلا الشاعرين قد أحيا الشعر العربي
ورد اليه نشاطه ونضرتة ورواه . وكلا الشاعرين قد مهد
أحسن تمهيد للنهضة الشعرية المقبلة التي لا بد من أن تقبل ،
هما أشعر أهل الشرق العربي منذ مات المتنبي وأبو العلاء من
غير شك . هما ختام هذه الحياة الأدبية الطويلة الباهرة التي
بدأت في نجد وانتهت في القاهرة ، وعاشت خمسة عشر قرناً أو

أكثر ، والتي ستستحيل وتتطور وتستقبل لوناً جديداً من ألوان الفن ، وضرباً جديداً من ضروب المثل العليا في الشعر . هما أشعر العرب في عصرهما . ولكن أيهما أشعر من صاحبه ؟ أفترى أن ليس من هذا الحكم بد ؟ أفترى أن تفضيل أحد الرجلين على صاحبه يغني أو يفيد ؟ نعم ليس من هذا الحكم بد ، لأنه تقرير الحق الواقع ، وفي هذا الحكم نفع عظيم لأنه وضع للأشياء في نصابها ، ولأنه يبين للبستئين في الشعر من الشبان أين يكون المثل الأعلى . أما أنا فلا أستطيع أن أقول إن أحد الشعارين خير من صاحبه على الإطلاق . ولكن شوقي لم يبلغ ما بلغ حافظ من الرثاء ، ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه وآماله . ولم يتقن ما أتقن حافظ من احساس الألم وتصوير هذا الاحساس وشكوى الزمان . لم يبلغ شوقي من هذا ما بلغ حافظ ، وهو بعد هذا أخصب من حافظ طبيعة ، وأغنى منه مادة ، وأنفذ منه بصيرة ، وأسبق منه الى المعاني ، وأبرع منه في تقليد الشعراء المتقدمين . لأن حافظاً كان يقلد في الألفاظ والصور ، وكان شوقي يقلد فيها وفي المعاني أيضاً . ولشوقي فنون لم يحسنها حافظ وما كان يستطيع أن يحسنها . شوقي شاعر الغناء

غير مدافع ، وشوقي شاعر الوصف غير مدافع ، وشوقي
منشئ الشعر التمثيلي في اللغة العربية . يلتقي الرجلان في كثير ،
ويفترق الرجلان في كثير ، ولكنهما على كل حال أعظم
المحدثين حظاً في إقامة مجدنا الحديث .

طه حسين